حديقة المقتطف

بوشكين

أمير شعراء روسيا

لحليم دمري

اوجين اونيل

من مسرحياته « فصل معترض »

لفؤاد عيناني

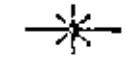

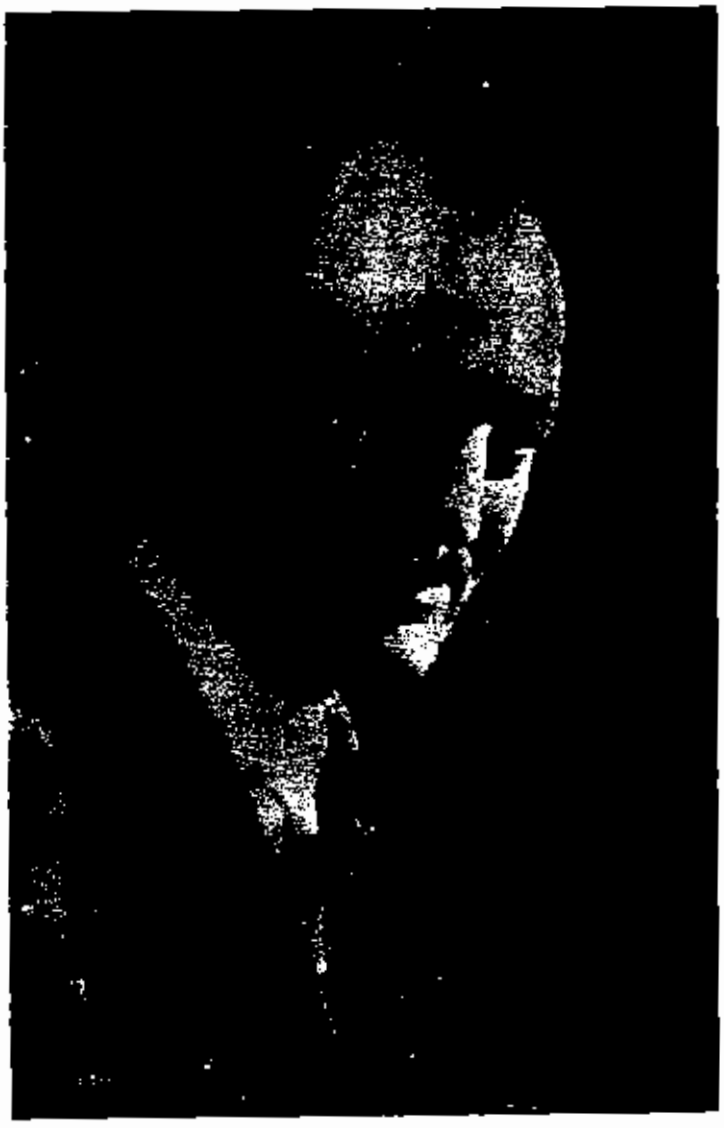

قيصر صابر

صاحب الرسالة القيمة في «الحضارة الحنية» التي نشرنا خاتمها في هذا الجزء

بوشكين

« أمير شعراء روسيا »

لحليم دمرى

عصر الشاعر

غزا نابليون روسيا عام ١٨١٢ واعتبر المؤرخون غزوته أكبر ظاهرة في تاريخ روسيا الحديث الى ان وقع الانقلاب الشيوعي . ولقد أثار توغل الجيش الفرنسي في روسيا الشعور القومي بل كان سبباً مباشراً للثورة النفسية الفكرية بل لتلك الزوبعة السياسية الخطيرة التي غامت فيها سحائب الخصومة واتقدت في نفس الشعب اسلافي امجد الحمية الوطنية . فاشترك الفرد والجماعة في غاية واحدة نبيلة هي دفع المعتدي للاحتفاظ باستقلال الوطن . ولقد أتيح لقادة الجيش كما أتيح لقادة الجماهير ان يضطروا الطاهل العظيم « نابليون » الى الارتداد عن روسيا بعدما عانت جيوشه شتى المصاعب وبعد ان احتمل الجندي الفرنسي ألم الجوع في شتاء قارص البرد شديد الزوابع الثلجية . أما « موسكو » فقد أحرقها أهلها وأما نابليون فقد رجع الى باريس لا يلوي على شيء . .

ولقد كان الشباب في روسيا يتطلع الى « باريس » حيث انبثق فجر الفلسفة الحديثة والافكار الاجتماعية الجديدة . ولقد كان الشباب يميل بحكم مظهره آنئذ الى تلك الاريستوقراطية المحافظة بل الى تلك المظاهر الخاصة بالبلاط الروسي

استطاع الأدب ان يكون مظهراً عظيماً من مظاهر الحياة الاجتماعية بل كان الأدب خصباً منتجاً ووديعة مقدسة بين أيدي الشباب . ولقد نشأت في هذا العصر تلك الخصومة الخالدة بين المحافظين على آداب القرون الوسطى ونزعاتها المختلفة وبين اصحاب الجديد ممن يرون الحياة كما هي لا يعيشون على الماضي ولا يتخذون من القديم معبوداً . ولعل الشاعر « جريبويدوف » يتحدث في شيء من السخرية في قصته الرائعة التي عنوانها « الهم من الذكاء » « Woe from Wit » عن هذه الخصومة الادبية

ولقد تألفت جماعة من شباب روسيا بعضهم من الحرس القيصري ينادون بحرية الفلاح والدستور . على أنهُ لم يمضِ بضعة اسابيع سنة ١٨٢٥ حتى شنق منهم خمسة من بينهم الشاعر المعروف « ريليف » وعرفوا بالديسمبريين فكان ذلك صدمة قوية هزت الأدب واساءتهُ في الصميم سدَّدها الى الديمقراطية القيصر « نيقولا الاول »

كان الأدب في اوربا إبان تلك الثورة الاجتماعية في روسيا بالغاً شأواً عظيماً بل كان نبراساً يضيء ظلمات ذلك العهد الذي مثل فيه الطغيان بصورة من هذه الصور « الاقطاعية » البالية . وطبيعي ان تنتقل الفلسفة في شتى مناحيها والادب في مختلف صوره الى روسيا حيث هذا الروح الادبي الناشيء في ساحة الجهاد . وهنالك نشطت الدعاية للتفكير الحديث وللأخذ بأسباب الرقي العقلي . وبلغ الشعر في هذا العهد مكانة رفيعة بل قد بلغ كماله المزموق في امير شعراء روسيا الشاعر العبقري « الكسندر سيرجفتش بوشكين » الموصوف بالمتنبي

وُلد « بوشكين » في موسكو في ٧ يونيو وفي رواية اخرى في ٢٥ مايو سنة ١٧٩٩ وكان أبوه نبيلاً وأمهُ نمت الى ابراهام دانيال الزنجي الأفريقي الذي قرَّبهُ بطرس الاكبر فورث منهُ شعرهُ الجعد ومزاجه الحاد . تلقى علومه في مدرسة تسار كوسيلو على مقربة من بطرسبرج وكان يكثر من الاطلاع في مكتبة أبيه الزاخرة بالمؤلفات الفرنسية . كان يجيد عدة لغات يطلع على آثارها ويكتب بما احتوتهُ من آثار علمية وأدبية . وعرف عن اخلاقه الاستهتار والسخرية والاسراف . ولقد حوى شعره كثيراً من هذه السخرية التي تتميز بها طبيعة بعض الشعراء

نشرت قصائده الاولى عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٢٠ نشرت قصتهُ الشعرية البليغة « رسلان ولودميلا » وفي السنة نفسها عين في منصب في « بيسرابيا » بجنوب روسيا انقاذاً لهُ من النفي الى سيبيريا وكان الباعث على نفيه قصيدة في « الحرية » اذاعها مخطوطة . ولقد أتيح لهُ وهو في القوقاز ان يستوحي روعة تلك البلاد . فكتب « سجين القوقاز » وهي قصة شعرية تصف غرام فتاة شركسية بضابط روسي . وفي عام ١٨٢٤ عاد الى قرية أبيه في « بوسكوف » بعد ان نظم قصيدة رائعة في البحر عند مغادرته اودسا . وهنالك قضى سنتين كتب فيها أدعى مخلفاته الادبية للخلود ومن بينها ذكريات حياته التي أودعها الشعر كما كتب قصته الطريفة « أوجين

أونيجين» وانك تلمس في بداءة هذه القصة الروح الشعري الذي تأثره بوشكين كما تستطيع ان تلمس في بسر وسهولة «روح» الشاعر الانجليزي بيرون. ولقد كان «بيرون» نموذجاً رفيعاً تمثله الشاعر في مناحي شعره بل كان الصخرة البارزة التي قام عليها نبوغ الشاعر «بوشكين». لم يتأثر بوشكين في بيرون نزعته الرومانطيقية بل كانت «الواقعية» هدفه الأسمى. ولعلك واجد أثر هذا في «كونت نولين» بل في «أوجين أونيجين» فهي وحي روسيا في نفس الشاعر وما استطاع ان يمثر عليه فيها من مثل صادقة هي الحياة الواقعة نفسها. بل انها لتشبه في كثير تلك الحياة التي كان الشاعر نفسه يحياها والتي يصور فيها الاجتماع الروسي بأجلى بيان. ولقد كتب مأساته الكبيرة «بوريس جودينوف» عام ١٨٢٥ وبعدها بعام واحد انعم عليه القيصر بالعفو العام. وعين مؤرخاً للقيصر عقب أن تزوج «ناتاليا جونشاروفا» عام ١٨٣١. ولقد كتب يومئذ تاريخاً لثورة «بوكاشيف». كما كتب قصة «ملكة البستوني» عام ١٨٣٣ وقد نشرنا ملخصها في مقتطف فبراير الماضي. وكذلك كتب «ابنة القبطان عام ١٨٣٦». ثم بارز «جيكرين دانتيس» في ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧ وكان هذا الرجل عدوه ولكنه أثار غيرة بوشكين بما وجهه الى زوجته من الغزل. الا ان دائرة المعارف البريطانية تفكر ان بواعث هذه الغيرة كان لها ما يؤيدها. وأسفرت المبارزة عن جرح بوشكين جرحاً بالغاً فتوفي بعد يومين متأثراً به

الشاعر

كان بوشكين محبًّا للجماعة لا ينقطع عن المجالس الأدبية يكلف كلفاً شديداً بالمرأة وتعصف حبه قبل زواجه اشبه ما تكون بالاساطير الآن. والمرأة ما برحت صورة من صور تفكيره وخيالاً لا يبرح مخيلة الشاعر. بل هي ما برحت مصدراً من مصادر الوحي الفني الذي لا ينضب له معين

جهد بوشكين في ان يجعل شعره مثلاً رفيعاً لطبيعة التأليف بين الحقائق. كان رحيلاً بعيد النظر تتصل شاعريته بهذه المعاني السيقة التي يوحي بها الأدب ولا عجب فقد قال عنه «جوجول» «ان بوشكين لظاهرة غريبة بل انه تلك الظاهرة الفريدة للروح الروسي». وقال عنه دوستويفسكي «ان النبوة لتمثل في شاعريته». وحقاً لقد

عرف ان ينفذ الى الوجدان الانساني . وان كان قد استلهم الفن الاوروبي الشعري الا ان طابعه الروسي لم يفارق خواطره التي تتصل بقلبه الكبير . كل شيء في حياة الشاعر لهُ منحاه الشعري ولعل الشاعر نفسه وحدة تلك القصيدة الكبيرة . قصيدة الكون والحياة . وشعر بوشكين نسيجه العاطفة الانسانية بل العاطفة الالهية والخيال والذوق . ان بطرس الاكبر قد اضطلع بجهود مضنية في سبيل الاصلاح الاجتماعي واما بوشكين فقد وصل الينا في هذا الجيل لتقرير الوجدان واثبات الروح الانساني . وان قصائده لمصباح قوي ينير ظلمات النفس ويحمل للحياة الاجتماعية والعقلية رسالة الفكر الموهوب وإذن بوشكين نبي مكرم . . . »

استمد بوشكين شاعريته من معينين . الاول اقطاب الادب الاوروبي لا سيما الكتّاب الفرنسيين الذين هيمنوا على الحياة العقلية في القرن الثامن عشر . والثاني الثقافة الانجليزية التي قامت على « بيرون » « وشاكسبير » « وسكوت » . واما وحي « شاكسبير » فانت تستطيع ان تجده في قصة « بوريس جودينوف » تلك الدرة الثمينة في الشعر المرسل . ولعل ما فيها يشبه من وجوه كثيرة قصة شاكسبير « الاوقات المسيرة » . ففي « بوريس جودينوف » نحس تهديد ديمتريوس لموسكو وعلى رأسها بوريس المظنون انهُ قاتل « تساروتش » . ويعتقد عالج بوشكين تلك القصة لتطابق تاريخ « كارامزين » وهي تبين مدى العذاب النفسي الذي يتألم حياة المغتصب الظالم وخطر يوم الدينونة الذي يقترب منهُ . أما قصته « الغجر » « The Gipsies » فيتمثل في بطلها اليكو « Aleko » جماع النظرة الاجتماعية في النفوس الانسانية المكبلة التي يضمها الشعب الروسي . وان هؤلاء الفقراء الذين ينتقلون من بلد ليرتحلوا الى آخر نشأوا أحراراً لا يتقيدون بهذه القيود المدنية ولا يدرون شيئاً عن اوضاع الحياة التي تفرض على المجموع . انهم يبعدون عن كل تهذيب أو تعليم الا تلك الثقافة البدائية التي يتوارثونها . وهذا بوشكين بلسان « اليكو » ينادي الكبرياء ليسخر منها فيقول الا فلتشيحي وجهك عنا ايتها المتغطرسة . فقد خلقنا ابطالاً لا نحفل بقانون . وانما لا ننفي ان نعذب أو نعاقب انساناً . ولعل المعنى المقصود انهم كالنهر السيال يصادف السهل الدهاس فيجري ويجيء على المكان الصخري ليرتطم به وأنهم اصحاب دماثة خلق وعزة نفس لا يلجأون الى مهانة

أو يقبلون ضيماً . ولقد رمى « بوشكين » طبقة الاشراف بهذا التنديد الذي نطق به « اليكو » ويقول بوشكين عنهم « ما أسخف هذه النفوس التي تخرج الى هذا الوجود لتقضي بضعة اعوام تتضع نفسها في تقدير منازلهم من نفوس الغير . انها لجنة الرياء » . وليس « اليكو » الا أفق ترك حياة المدن ونزح الى طائفة من هؤلاء « النجر » فكان ضيف الشؤم عليهم — وهو على حد تعبير « دوستويوفسكي » ممن تزيد بهم الحاجة واختتمت حياتهم بالاخفاق واستوعبهم الادب الروسي الحديث

كان بوشكين من دهاة الاشتراكية وهذه خواطره تنساب فيها صوفيته الانسانية وعطفه الكريم بل تلك هي هواتفه الخالدة التي تنادي بتحقيق « النفسية الروسية » التي تضمن للفرد حريته ومتعته امام ما يمكنه أن يأتيه من خير للجماعة . والنفسية الروسية قائمة على التجديد في أساليب الاجتماع حتى تمهد الحياة للانسان فرصة من السعادة المنشودة . هي تسعى جهدها نحو الحرية في اتصى حدودها واعمق معانيها . لا يجب ان يحتمل الشعب « الكرياء المزيفة » التي يتصف بها رجال الدين أو اصحاب السلطة انما يجب ان يأخذ بلباب الدين وهو التسامح والتقوى وان يعمل الحكام لخير الشعوب . ولقد كان بوشكين قطباً من اقطاب الشعر الغنائي وقد اعترف ملحق التيمس الأدبي ان ترجمته متعذرة لان الوحدة بين معانيه وشعوره وأسلوبه لا تنفصم الا ويضيع سر الجو الذي تخلقه نيرانه المتناسقة

وهاك مقطوعته الصغيرة « احببتك » ففيها يقول

« اني أغرمت بك وهاك اعترافي القيه بين يديك الآن . ان ذكريات حبك لما تزل تلهبني ولست احب ان تنتهي بك الى شيء من الألم . فانا لن أرجو لك مفاجأة أخرى . لقد انطفأ سراج املي وعقد لساني ولكن تلهي يفيض بهذا الحب الذي تعزبه نفسي . فيه استوى رأي الحسود والطبيب . اني لاستمد حبك من فيض القلب فاحببتا لو تبدين بعاطفة كعاطفتي »

ولقد اكبر العالم شاعرية بوشكين لما فيها من روعة وروح . انها عيون ثرة للقلوب المتعطشة للجمال والحق ، بل هي انجيل الرحمة . وان خواطره لتصدر عن قلبه الفني الى المجتمع الروسي كالورد النضير يجلو الندى في بهجة الصباح او كالنرجس الغض اذ يبكي في ظلال المساء